منظور خاطیء
لولیا

رواية منظور خاطىء

تأليف لوليا

الإهداء

لأصحاب الضمائر الحية

تلك التمثيلية الغبية التي تجد نفسك متورطا فيها

صديقك المذنب...

أشخاص يتم إتهامهم بالجريمة فقط لأنهم كانوا في مسرح الجريمة في الوقت الخطأ ولأن خلفيتهم ملوثة...

أشخاص نصبوا أنفسهم قضاة بسبب رؤية وفكرة خاطئة ، ولم يفكروا إطلاقا ولو قليلا أن الجريمة حدثت قبل أن يصلوا هم إلى مسرح الجريمة...

المتهمون يصرون ويقسمون مرارا أنه ليس خطأهم إطلاقا ولكن لا يتم تصديقهم...

وأنت فقط تقف هناك متفرجا على هذا الخطأ الفادح الذي تم إرتكابه...

أولا أنت لا تملك الجرأة للكلام إطلاقا...

ثانيا ماذا ستفعل ؟ هل ستشي بصديقك الجبان الذي يكاد يموت رعبا وليس له القدرة للإعتراف...

ألن تخون صديقك في سبيل الحق وتقف مع أولئك الأبرياء ؟

لا لا ليس لديك الجرأة لتقاطع هذا المشهد المخيف ، وأولئك القضاة المرعبين...

أنت في موقف لا تحسد عليه...

فتصمت فقط...

تنظر من حولك فترى هذا وذاك ، لست الوحيد الذي يعرف المذنب الحقيقي ، لماذا الكل صامت لماذا لا يتحدث أحدهم ويقول " إنهم أبرياء " لماذا لا ينطق أحد ؟ ، لماذا يقف الجميع وكأنهم بكم ؟

تبا أين الوقوف بجانب الحق هنا ، هل نحن بهذه الحقارة حقا كي نصمت ؟!...

الكل مذنب هنا بإستثناء من تم إتهامهم بذلك...

وفي النهاية ماذا ؟ ، كان مجرد حادث ، صديقك لم يتعمد الأمر ، كانت مجرد غلطة.

لا أنت لن تشي بصديقك الذي لم يقصد ، لا بأس لما عساك تشي به...

وتبا لما كل هذا الرعب ، يكاد الكل يموت من الخوف ويتورط بسبب حادث...

أي قضاة لعناء هم هؤلاء ، لو كانوا متفهمين فقط ويتصرفون كبشر عاديين بدلا من التصرف كشياطين ، لكان الأمر أسهل بكثير...

لقد زرعوا الخوف في نفوسنا ، لهذا ليست غلطتي لأني لم أتكلم ، وفقط ليس ذنبي.

وفي النهاية ماذا؟

أنا لا أهتم بشأن خطأ من يكون أنا أهتم بشيء واحد فقط لما لم أتدخل ليس وكأني كنت لأموت لو تدخلت...

أفكر وأفكر وأتذكر أني كنت ولا أزال شخصا مصابا بعقدة الخجل كما يبدو، تلك العقدة التي تقف عقبة في حياتي ، أجل...

أجلس على حافة سطح أعلى بناية في المكان ، مقابلا لمشهد الشمس وهي تختفي تحت خط الأفق مودعة المدينة لليوم ، أتابع العجلة العملاقة في مدينة الألعاب وهي تدور ببطء منيرة باللون الأزرق.

أضغط على زر الصوت في هاتفي ليرتفع الصوت في سماعات الرأس خاصتي لأنفصل عن عالم البشر في هذه اللحظات ويبدو وكأني في عالم هادىء حزين لوحدي.

ذاكرتي ما زالت مركزة على ليلة البارحة تلك ، ذلك المشهد يتكرر في رأسي كما لو كان مشهدا من فيلم ما.

لقد وقعت بين خيارين صعبين جدا ، يا إما أن أشي بصديقي وأتورط في الأمر وأترك العدالة تأخذ مجراها أو أصمت فقط وأترك الأمور لتسير هكذا بهدوء وبشكل خاطىء.

ومنذ البارحة لاحظت أن أمجد إختفى عن الأنظار تماما؛ تم تحويل القضية إلى المحكمة والقصة بدأت تكبر وتتوسع.

الوقت يمر علي خانقا جدا ؛ أنا بالرغم من كل شيء أفهم أسبابي الخاصة أفهم لما لا أتكلم ، لدي ظروف تمنعني من ذلك ، لا يمكنني أن أحمل عائلتي أي مشكلة ، لا يمكنني أن أورط أبي في شيء كهذا إطلاقا ، ولا أريد أن تظن أمي أني خذلتها.

غادرت مطعم المبنى بعد أن تناولت وجبة العشاء في وقت مبكر ، ثم إتجهت إلى الحديقة العامة لألقى رامي ويونس.

طوال الطريق كنت أسير وأشاهد واجهات المحلات المضاءة ، والتي تعرض سلعا مختلفة ، مررت كذلك على المتحف والذي يقف شامخا مقارنة بالمباني حوله.

لا شيء تغير في هذه المدينة ، هي على هذا الحال منذ سنوات طوال ، منذ أن كنت طفلا ، غير أن هناك أماكن أغلقت وحلت مكانها أخرى.

وصلت إلى الحديقة وكانت أعمدة الإضاءة فيها مُنارة وساطعة، والضوء إنعكس على العشب الأخضر مانحا إياه لونا خلابا، وإنعكست صور الأشجار المورقة على ماء البحيرة الساكن لتبدو وكأنها لوحة فنية مرسومة على الماء.

وجدت صديقيَّ جالسين على أحد الكراسي الحديدية العتيقة المنتشرة حول البحيرة ، أما عن رامي فقد إرتدى معطفا أخضر بدى مشعا كالعشب في الحديقة بتأثير إنعكاس الضوء عليه وتناسق مع قميصه وسرواله الأسود وقد إستقر على شعره البني نظارته الشمسية التي يرتديها من أجل مظهره الخارجي كما يقول وليس للسبب الأساسي التي صنعت لأجله ؛ رحب بي

رامي مبتهجا ، أما عن يونس فلم ألاحظ عليه أي شيء مختلف ، يجلس بإسترخاء غير مبال كعادته ، يخفي يديه في جيوب معطفه.

حييتهما ثم جلست معهما كالمعتاد غير أن جلستنا كان ينقصها أمجد هذه المرة تحدثنا عن الدراجة النارية التي ينوي يونس شراءها وتحدثنا عن قرار بحثنا عن عمل نساعد به أنفسنا ، وتحدثنا عن أمور عشوائية ؛ وطوال حديثنا لاحظت أن رامي يتصرف بغرابة ، إنه مرح الليلة بشكل فاق المعتاد ، سألته : " ما بالك الليلة؟ "

فضحك ورد علي محاولا نفي الأمر : لا شيء ، أنا كما أنا.

وأيدني يونس عندما وجه كلامه له : أنت تضحك بشكل مبالغ فيه ، من الواضح أن ما حدث البارحة أثر عليك ، لا تنكر.

لكن رامي تابع الإنكار بعناد طفل بقوله : ولما عساه يأثر علي ، لم تكن غلطتي من الأساس.

لم تكن غلطة أي واحد منا ولكن كوننا كنا شهودا على ما حدث فهذا يجعلنا متورطين في الأمر بشكل أو بآخر ، وهنا إفتتحت الموضوع الذي تحاشيناه طوال الوقت : ألا تظنون أنه علينا فعل شيء بهذا الشأن؟

ولم ألقى سوى الصمت ، وكأن ما قلته للتو كان مجرد مزحة سخيفة ؛ فأعدت الكلام : يا رفاق فلتيجبوا ، ماذا سنفعل؟

وقف يونس وراح يحوم في المكان واضعا يديه في جيبي بنطاله الجينز مفكرا وأجابني : نعم من المفترض، ولكن الأمر يعتمد على أمجد ، هو من يجب أن يتكلم ويعترف بغلطته، وليس نحن ، اللوم يقع عليه قبل أن يقع علينا ، وكلنا نعلم أنه لم يتعمد الأمر، لذا هو من عليه أن يتخذ هذا القرار قبل كل شيء.

وجدتني أبلل شفتي لا إراديا وأحاول التذكر مجددا لما أنا متورط في هذا ، ألم يكن من الأفضل لو أمضيت ليلة البارحة في غرفتي أدرس مادة الفيزياء السخيفة ؛ عقد رامي الجالس بجانبي ذراعيه ونطق بعدما زفر متململا : أنا لا أريد التورط في الأمر لم أرد أن أكون شاهدا على ما حدث ولا أريد أن أضطر للوشاية بأمجد ، ولا أن أعاقب على شيء لا يعد جريمة حتى.

" أمجد " ماذا لو لم يعترف ، ماذا سيحدث؟ إنه خائف من الإعتراف أنا واثق من هذا ، ولكن ماذا لو لم يعترف؟ من سيدفع الثمن؟ دارت تلك التساؤلات في عقلي ولم أجرؤ على نطقها حتى.

شعور الندم يتآكلني ببطء ، أنا لا أريد أن يدفع شخص بريء ثمن خطأ شخص آخر، حتى لو لم يكن الخطأ متعمدا، وفي الوقت نفسه أريد لو تأخذ الأمور مجراها الصحيح من تلقاء نفسها.

فصل الربيع هذا سيبقى خالدا في ذاكرتي حتى الممات حتما بسبب هذه الأحداث.

أُغلق الموضوع بوقوف رامي وفرقعة إصبعيه السبابة والوسطى قائلا : فلنمنح أمجد بعض الوقت لا بد أنه سيحل الأمر.

وافقنا على قوله ذاك ، حتى لو لم تكن واثقين إطلاقا بما سيقرره أمجد ، وهكذا عدنا لتحاشي الموضوع ووقفنا نسير معا في الطريق نفسه إلى منازلنا نتحدث عن أشياء بعيدة عن تلك المعضلة فلا أحد يريد المزيد من توتر الأعصاب.

ودعنا رامي أولا عندما وصل إلى منزله ، فتابعت المسير ويونس.

" المبالغة في التفكير لهي عذاب " نطقها يونس بعدما بعثر شعره الأسود كالليل بيمناه ، ثم أتبع بعد أن نظر إلي نظرة جانبية : لا ترهق نفسك في التفكير، أعلم أن الأمر يشغل بالك، وأنا أيضا، لكن لا يجب أن نبالغ في الأمور ، علينا أخذ الأمور بروية ، أفهمت يا ياسين؟

همهمة صدرت مني ورددت عليه قائلا : " بلا ، أنت محق " وما كادت تمر دقيقة وقد قطع يونس الصمت سائلا : هل ما زلت تذكر كيف إلتقينا؟

كنت على وشك أن أجيبه بلا لكني إستدركت قائلا : آه نعم تذكرت تذكرت.

" حقا " قالها بإستنكار متعمدا فقلت : طبعا أذكر سأروي لك كيف.

" حسنا "

حمحمت قبل البدأ : كان ذلك قبل سنوات لا أذكر متى بالضبط ، ربما ثلاث أو أربع أو خمس، كنت ذاهبا للمتجر القريب من منزلي لشراء شيء لا أذكر الآن ما يكون ، وكنت أقود دراجتي القديمة لآخر مرة قبل أن أبيعها تحت مسمى خردة ؛ وحينها من حيث لا أدري ، ظهرت أنت أمامي ، وكون الدراجة كانت قديمة فقد فقدت السيطرة عليها ، وإصطدمت بك بكل قوة.

كنت قد وقفت متألما ، بينما نزلت أنا من على دراجتي وكنت على وشك الإعتذار ، لكنك أفرغت كل غضبك فيَّ ، بسبب إصطدامي بك ، وكنت قد إستعملت كل كلمات الإهانات ولم تقصر : " لماذا تقود هذه الخردة المعطلة ألا تملك المال لشراء أخرى هل أنت فقير أيها الأحمق المتهور " أذكر جملتك بكل وضوح.

وكنت قد أجبتك ببرود مع نية إستفزازك : " أجل أنا فقير "

ولكن إجابتي وبغير قصد جعلت التعجب يرتسم على ملامح وجهك فرددت قائلا : أتقولها بهذه البساطة ، ألا تخجل؟

" أنا فقير ولست مجرما حتى أخجل "

هذا كل أتذكره ، كان الحادث مؤثرا لذا ليس من الصعب علي تذكره.

أنهيت سردي للقصة وقد إنتبهت إلى الجملة الأخيرة وبدى لي أني فهمت ما أراد يونس الوصول إليه ، وقد قطع الشك باليقين عندما تكلم.

" حسنا أنت مجرم الآن ألا تخجل ؟ " نطقها يونس مستفزا ، فإنفجرت ضحكا دون أن أستطيع منع نفسي ، وفكرت قليلا وأنا أجيبه : لست مجرما يا شريك أصلا لولا ما فعله أمجد ، لمرت ليلتنا تلك بسلام وما علم أحد.

" بارد كما كنت " قالها يونس مغتاظا ، وتابعنا السير حتى وصلت إلى منزلي.

عندما وجدت عائلتي متجمعة في المطبخ الذي تصدر منه الإضاءة وأصوات الحديث ، صعدت إلى غرفتي في الأعلى متحاشيا إياهم.

أغلقت باب غرفتي وفي نفس الوقت رن هاتفي برقم رامي ، فتحت الخط بلا تأخير فتكلم متسائلا : هل وصلت لمنزلك؟

" نعم "

" هناك شيء أريد إخبارك به "

" ماذا هناك؟ "

" غدا الأربعاء ، سيتم عقد جلسة بخصوص ذلك الرجل "

هل بهذه السرعة ، هل يظنونه المذنب حقا ؟ لا أصدق ! ، صدر صوت رامي من الهاتف متسائلا : ياسين هل تسمعني؟

إبتلعت ريقي ورددت متوترا : نعم ، هل يعلم أمجد بهذا ؟

" هاتفه مغلق ، لذا لا أدري ، على كل غدا ستتوضح الأمور "

وافقت رامي فأغلق الخط سريعا ، غدا ستتوضح الأمور، ما معنى هذا ؟ درت بنظراتي في غرفتي الفوضوية تماما كفوضوية أفكاري، نظرت إلى هضاب الكتب التي تتناثر فوق طاولتي والتي كلما حاولت ترتيبها إلتهيت بشيء آخر، وإلى خزانتي البيضاء التي أرى طرف كم قميصي الأزرق يطل من تحت بابها المغلق ، وإلى غطاء سريري الذي إستقر على الأرض كوني لم أرتبه ، وإلى الصناديق التي تحمل بعضا من أشيائي كالسماعات القديمة وشواحن الهاتف ، وأشياء تشابهها أنوي التخلص من معظمها عندما أتفرغ .

وقطع شرودي طرق خفيف على باب الغرفة ، فتحت الباب فإذا به أبي ، دلف إلى الداخل بهدوء وتساءل : لما لم تأتي لتناول العشاء معنا؟

" تناولت العشاء في الخارج "

أومأ متفهما ، ثم تفحص الغرفة وتساءل مرة أخرى : تبدو مختلفا اليوم ، هل هناك خطب ما؟

شعرت بالحرج قليلا ، وحككت مقدمة أنفي وأنا أجيبه : لا شيء يا أبي ، إنها الدراسة فقط.

" هاه لا بأس " نطقها وقد أضاف بإبتسامة مشجعة : أبذل جهدك أيها الشاب ، ولن يصعب عليك شيء.

إصطنعت إبتسامة باهتة ، وكورت قبضتي رافعا إياها في فضاء الغرفة وأجبته : حاضر يا أبي.

فقط هذا وإنصرف فزفرت بتعب ، أنا أتمنى لو أستطيع إخباره بالحقيقة فقط ، ولكني لا أستطيع ، لن يتفهمني ، أوقن هذا جيدا.

مرت الليلة وأنا أرسم أسوء السيناريوهات في رأسي لما سيحدث غدا.

من ضمنها ، قد لا يعترف أحد ونتسبب في دخول رجل بريء السجن ، أو سأعترف وأدخل السجن وأصدقائي ، أو سيعترف أمجد وندخل السجن ، أيا كان الشخص الذي سيعترف سندخل السجن ، لا يوجد جانب مشرق في الأمر مهما حدث هناك من ستضيع سنوات من عمره.

على كل في اليوم التالي ضبطت مواعيدي ، ووضعت أخيرا قبعتي الرياضية السوداء على رأسي والتي تشبه ملابسي الداكنة اللون كالعادة ، وإتجهت إلى المحكمة.

دخلتها وأنا أشعر بمشاعر متضاربة في نفسي ، شعرت بالتوتر وبالخوف وبرغبة في التراجع لكني رميت كل تلك المشاعر خلفي ، وبحثت عن القاعة التي ستقام فيها الجلسة التي تعنيني ، والتي لو إختلفت الأحداث قليلا لكنت حضرت هذه الجلسة اليوم لأرى أمجد أو كنت أنا لأكون المتهم اليوم.

دخلت القاعة بهدوء ، وكانت تبعث شعورا بالهيبة في نفسي ، المكان رسمي جدا ، يتراص فيه الأثاث البني العتيق ، المكان المخصص للشهود ، والمقاعد حيث يجلس المتهمون والمحامون في المقدمة ، ومقاعد أخرى تليها حيث حجزها عدة أشخاص رأيتهم سابقا، منهم بعض العمال من المتحف، ومدير المتحف ومساعده ، وأشخاص غيرهم لا أعرفهم.

وفي الجانب المقابل للمكان الذي أقف فيه ، يتمركز الكرسي الضخم الذي يجلس عليه القاضي ، وبين كل تلك الوجوده لم أتوقع أن ألمح وجهي رامي ويونس ، لكنهما حضرا كذلك وجلس كل منهما في مقاعد متباعدة.

قطعتُ بضع خطوات وسط ذلك الجو المشحون بالتوتر أو على الأقل هذا ما بدى لي وإتخذت لنفسي مقعدا في قاعة المحكمة تلك.

يمر الوقت وتبدأ المحاكمة ، ذلك الرجل حضر رفقة محاميه ، وكل من لمسته القضية قد حضر ما عدى أمجد.

مقدمات قصيرة قالها القاضي ، جمل رسمية ، وكلمات ثقيلة المعنى.

أصغيت بإمعان لكل كلمة وكل صوت يعلو في القاعة حتى سمعت أخيرا ما أردت سماعه.

كانت تهمة الرجل والذي عرفت أن إسمه " كمال " هي " تدمير الممتلكات الخاصة " سخرت في نفسي ، أي تهمة هذه ؟! الرجل لا ذنب له أساسا ، ولكن... ألم يكن من المفترض أن يتهم بالإهمال، أن ما فعله كان مجرد حادث نتيجة الإهمال ، هذا ما فكرت فيه بعد أن كنت قد بحثت سابقا عن مواضيع كهذه لأعرف ما قد تؤول إليه الأمور.

ولكن مع سير القضية ، وما أضافه المحامي والقاضي إلى معلوماتي ، فهمت لما لم تكن تهمته الإهمال.

تسارعت نبضات قلبي عندما سمعت ذلك وحافظت على ثباتي وعلى وتيرة أنفاسي، الرجل متورط في جريمة سابقة قبل ثلاث سنوات ، لهذا سجله لم يساعد في تبرئته من التهم ، لا بد أن هذا جعله ضحية سهلة أو المتهم الأول كما يظنون.

ولم يتوقف الأمر هنا بل هناك شهود على كونه جانيا في هذه القضية ، عما يشهدون بالضبط ! على شيء لم يروه !! أكاد أؤكد أن لديهم عداوة شخصية مع الرجل كمال حتما.

رغبة ملحة تنتابني للوقوف وشرح الأحداث الحقيقية بالتفصيل لكن لا يمكنني ذلك.

بعدما قاله الشهود المزيفون أو بالأحرى شهود الزور، وروايتهم للقصة من وجهة نظرهم بكل درامية وتحدثهم عن علاقتهم بكمال ووصفه بأنه شخص عدواني عنيف ؛ ومع سير الجلسة ، إنفعل الرجل ووقف مجددا يقسم أنه لا ذنب له بالأمر بصوت مرتفع ، ومحاميه يحاول تهدئته ؛ أنا لا أدري لما يتكرر هذا السيناريو نفسه ، هذا المشهد تماما كالمشهد في المتحف سابقا.

إذا كانت تهمته تدمير الممتلكات العمدي فهذا يعني أن عقوبة الأمر قد تتخطى الغرامة المالية إلى السجن ، وهنا بالذات شعرت أن الأمور إنحرفت عن الطريق تماما ، وكأن ما أخشاه على وشك الوقوع.

لكن ولأسباب لا أفهمها تأجلت الجلسة إلى يوم الإثنين القادم ؛ وخرجت من القاعة مهموما وكأن حملا ثقيلا ألقي على عاتقي ، قابلت رامي ويونس خارج المحكمة ومع بدأ حديثنا قال يونس بنبرة جادة :" يجب أن نذهب لرؤية أمجد "

أوقف يونس سيارة الأجرة الصفراء الفاقع لونها ، وها أنذا أجلس على الكرسي الخلفي من السيارة أحدق في معالم المدينة حولي من جمادات ومخلوقات حية ، تمر على ناظري بسرعة خاطفة.

وفي الجهة الأخرى جلس يونس وفي المنتصف جلس رامي الذي إنشغل بهاتفه، وسبحت في أفكاري كالعادة ، هناك أمور من المستحيل الهرب منها يجب مواجهتها فإما الربح أو الخسارة ، وفي هذا أحاول أن أربح شيئين فقط أريد أن أربح حريتي وراحة بالي ، ولا شيء آخر ، إذا ربحتهما فلا شيء بعدها سيهمني ، ولكن إذا خسرت فلا حياة لي بعدها.

وأبقى أكرر في نفسي جملة " كل شيء سيمر " وكما قال لي أبي في وصفها ذات مرة ، إنها جملة قصيرة وبسيطة جدا ولكنها في الوقت نفسه تحمل أكثر من معنى ، فسيفهمها المتفائل أن مشاكله وحزنه وكل همومه ستمر ، أما شخص آخر لا يمكننا وصفه بالمتشائم ، فسيفهم أن كل شيء سيمر سواء أحزانه أو سعادته ، إنه لا يستثني شعورا من هذا ، وهنا يأتي قرارك أنت أي الشخصين تريد أن تكون.

لم يبدو لي أنه من المهم أن أختار أيهما أكون فهذا لن يغير حقيقة أن كل شيء سيمر، ولكني إخترت أن أكون المتفائل، وأختار ذلك الآن أيضا ، لأنه وبعد كل شيء تبقى الحياة تافهة ، والتشاؤم لن يزيد الأمور إلا كآبة.

قطع شرودي صوت رسالة صدرت من هاتفي الذي سرعان ما أخرجته لأقرأ الرسالة ، والتي كانت من رامي الجالس جانبي.

كان المُرسَل هو خبر يعود تاريخه لسنوات مضت ، عن حادث إنفجار في مصنع للألعاب النارية ، وقد تسبب في تدمير نصف المصنع وإصابة أربعة وعشرين عاملا ، ويعود السبب إلى خلط أحد العمال لمواد خطيرة غير مؤهلة لإستعمالها في صنع الألعاب النارية.

وبعد متابعة القراءة تفاجئت عندما وقعت عيني على الإسم الذي سمعته لأول مرة في المحكمة " كمال الهاشمي " هو الشخص الذي تسبب في حادثة الإنفجار وهو نفسه الذي ورطناه في ما يحدث الآن.

تفقدت الصور وكانت الصور للشخص نفسه غير أنه بدى في الصور أصغر سنا.

وصلتني رسالة أخرى من رامي وقد كتب فيها بإختصار ~ ذلك الشخص ليس مجرما هو فحسب شخص لم تسعفه الحياة ~

نحن حتما مدينون لذلك الرجل بتوضيح للأمور وإعتذار لائق ، ولكن بالتأكيد من سيعتذر يجب أن يكون صاحب الغلطة وليس أصدقائه ، يعني أمجد من هو مدين له بذلك.

فلن أذهب للرجل مثلا وأقول له " أنا آسف لأن صديقي أخطأ " إنه صديقي ولكني لست مسئولا عن أخطائه.

خلال مدة من الزمن ، كنا نقف أمام بيت أمجد الذي يدل مظهره على ثراء مالكه ، رننا الجرس وإنتظرنا حتى فُتح الباب وأطل من خلفه أمجد بذاته وكان يتصرف بشكل مثير للريبة ؛ نظر إلينا ونظر إلى ما خلفنا قبل أن يسأل : ماذا تريدون؟

" رؤيتك والحديث معك " نطقها رامي وقد إقترب من أمجد أكثر.

" أنا مشغول ، لذا لا أظن أن بإمكاننا الحديث الآن فلنأجله لوقت آخر "

عارضه رامي : مشغول بماذا ؟ هل أنت جاد يا أمجد **!** لسنا هنا لنتحدث معك بشأن أمر تافه ، دعنا نتحدث أولا ثم أكمل أشغالك المزعومة.

إستسلم أمجد لقوله وأفسح لنا المجال للدخول ، وبدى منزله خاليا كالمعتاد ، فوالدته تعمل طبيبة ووالده مدير، إستقبلنا أمجد في غرفته ولم يدم الصمت طويلا بعد أن توزعنا في الغرفة ، منا من جلس على السرير ومنا من جلس على الأريكة وأمجد جلس على كرسي مكتبه مقابلا لنا ، حمت بناظري في الغرفة وكانت مرتبة جدا ، تكاد تلمع من النظافة.

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على عدم مكوثه في هذه الغرفة طويلا ، لأنه ليس بالشخص الذي يهتم بالتنظيم والترتيب حسبما أعرف.

تساءل أمجد والإنزعاج باد على ملامح وجهه: حسنا عما تريدون الحديث؟

فنطق يونس بإقتضاب وقد إتسمت جملته بالإستهزاء : ليس وكأنك لا تعرف.

لكن رامي شرع يحكي لأمجد عما حصل اليوم بالتفصيل وأنهى كلامه في دقائق معدودات.

" وماذا تريدون مني أن أفعل " خرجت تلك الجملة من فاه أمجد ببرود وكأن الأمر لا يعنيه.

فرد عليه يونس : ألا تفهم أيها البليد ، " أنت بالذات تلعب بحياة ذلك الشخص.

" لا تتكلم وكأنه ليس لك يد في الموضوع لقد كنت معي وأنت مخطىء بقدري تماما "

" لما عسانا نكون مخطئين بقدرك، أولا أنت من تحمست للأمر وأخيرا لو لم تتهور لو كنت حريصا فقط لما كنا متورطين معك " قلتها فنظر أمجد إلي وقال " أنتم تلقون اللوم علي الآن ، أحسنتم "

تدخل رامي مخاطبا : يجب أن نرسم مسارا لهذا الموضوع بدلا من تركه مبهما هكذا ، هما خياران لا ثالث بينهما ، الأول أن نترك الأمور كما هي ونترك ذلك الرجل البريء يعاقب ، الثاني أن نعترف ونوضح الأمور ونتحمل مسئولية فعلتنا جميعا.

وبعناد كما إعتدنا من أمجد قال : إفعلوا ما تشاءون ، لا دخل لي.

وهنا طفح كيلي فوقفت من مقعدي وتوجهت نحوه فوقف محترسا ، أمسكت بكتيفه أضغط عليهما وصرخت في وجهه بإنفعال : الأمر لا يعتمد على من يمشي معك ولا على من حولك الأمر يعتمد عليك وحدك ، أتفهم ؟!

أبعدني عنه رامي ويونس الذي نطق : إنه قرارك أنت يا أمجد ، أنت من يجب أن يعترف بالأمر لا تجعلنا نضطر للوشاية بك ، ولا تلعب بحياة الرجل البريء.

إلتقط أمجد أنفاسه قائلا : أنتم لا تفهمون ، سأدخل السجن حتما ، وعقوبتي ستكون أكبر من عقوبة ذلك العامل ، وحتى أنتم ستعاقبون.

ألا تفهمون الأمر ، هم لن يروا الأمر كما نراه نحن ، هم سيروننا على أساس أننا لصوص إقتحمنا المكان ، وقمنا بأعمال تخريب وهربنا ، هذه جنح جنائية يعاقب عليها القانون ، سندخل السجن جميعا إذا إعترفت بما حدث ، أو إذا إعترف أي واحد منكم ؛ " ألستم خائفين من هذا؟ "

ضحك رامي بسخرية وبصوت عالي قبل أن يقول : كيف لسنا خائفين ، بالطبع نحن خائفون ، لا أحد منا يريد أن يُضيع سنوات من عمره خلف القضبان ، لا أحد منا يريد أن يصبح سجينا ونحن حتى لم نتخط الثامنة عشر من أعمارنا ، نحن نشعر بالخوف طبعا ، لكن ميزتنا أننا نخفي مخاوفنا ببراعة.

توقف يلتقط أنفاسه وتابع : لكن ماذا سنفعل هل سنترك شخصا بريئا يتحمل عواقب مغامرة سخيفة تحمسنا لها ؟! إسمع يا أمجد أحيانا وأنت تتقدم للأمام ستشعر انك تفقد نفسك ، إنه أمر مرعب نعم ، ولا نعلم ما العواقب بالضبط ، لكن واجبك القيام بالصواب مهما بدى الأمر مرعبا ، ومهما كانت العواقب.

" هل يمكنكم أن تدعوني وشأني فحسب " ختم أمجد حديثنا بتلك الجملة ، إنتهى حوارنا ذاك بدون نتيجة ، أردنا ترك الأمر لأمجد ، لكنه لم يعطنا

جوابا شافيا ، لذا أصبح كل منا حرا فيما سيفعل ، إذا قرر أحدنا الإعتراف فسننتهي.

حجب الرمادي الأزرق وتمايلت الأشجار المورقة يمينا وشمالا ، وإختبأ البشر وعلا صوت الرياح عازفا لحنا عشوائيا ، إنها الساعة الثامنة مساءً.

عدت لمنزلي مكتئبا ، وكل ما أفكر فيه هو كيف أتجنب العقاب بعد أن أعترف ، ولكني علمت أن ذلك مستحيل ، لا يمكننا أن ننجو بعد الإعتراف.

لكن أن نعاقب الآن ، خير من أن يعاقب شخص آخر مكاننا ، ويبقى شعور الندم يتآكلني لما تبقى من حياتي ، أعلم جيدا أن ضميري لن يرحمني.

وفي نفس الوقت فكرت ، لو لم نعترف ما أسوء ما سيحدث ، سيعاقب ذلك العامل مكاننا ويسجن لبضع سنوات وينتهي الأمر ، ولكن من أنا حتى أضيع سنوات من حياة شخص بريء.

ضاقت علي الدنيا بما رحبت وشعرت أن الحلول إنتهت وأن الأمر لا مفر منه.

كنت جالسا على السرير في غرفتي أدفن وجهي بين يدي ، عندما دخل أبي إلى غرفتي بهدوء كعادته ، سألني عن دراستي وعن أحوالي ، وكنت أرد عليه بإجابات مقتضبة لعدم رغبتي في الحديث إطلاقا، حاولت أن أتجنب الأمر، لكنه بالرغم من كل شيء كان مصرا على سحب الكلام مني ؛ ولحظتها أردت أكثر من أي وقت مضى إخباره بالأمر لأني تعبت من إخفائه وإذا لم أخبره الآن فمتى سأخبره ، عندما يتم إعتقالي مثلا؟ إستجمعت شجاعتي ونطقت بصوت منخفض : أبي

" نعم يا ياسين؟ "

بلعت ريقي وتابعت : هناك شيء علي إخبارك به.

إرتسمت ملامح الفضول على وجهه وقال " تابع ، أسمعك "

كان جالسا على كرسي قريب من سريري ينظر إلي بهدوء ينتظر مني أن أتابع ، لقد خفت من ردة فعله ولكني تمنيت أن لا يغضب ويتفهمني ، هذا كل ما أردته وقتها ، فتكلمت بهدوء وترو وإعترفت له بالأمر، ولم أتوقع منه رد فعل مختلفا.

كان يجلس صامتا للحظات قاطبا حاجبيه وإعتلت الدهشة ملامح وجهه ، ثم نهض قائلا بغضب إشتعل في عينيه : أجننت يا ولد ، من المفترض أنك ذهبت لتدرس ، من المفترض أنك ستلتحق بالجامعة العام القادم ، هل هذا وقت لتتهور فيه؟

حاولت أن أبرر له قائلا: " كانت غلطة "و" لم نتوقع أن تصل ألأمور إلى هذا " " كانت فكرة غبية إقترحها أمجد "

فقاطع كلامي قائلا بسخط : " أمجد.. لما تصادق ذاك الشخص ؟ ألم أقل لك سابقا أنه سيسبب لك المشاكل! "

ولم أكن معتادا على إخفاء إنفعالاتي عن عائلتي فوقفت قائلا : لقد كان خطأً حسنا ، لم يكن من المفترض أن تسير الأمور كذلك ، حسنا هو لم يتوقع أن يحدث ذلك ولم ينو سوءً.

" هل تعلم ما عواقب الأمر ؟! ، هل تعلم ماذا سيحل بك ؟! ، وهل تعلم فيما ورطت نفسك ، لقد أصبحت شريكا في الجريمة أيها الغبي " قال أبي كلامه ذاك ، وهو لا يعلم أنني أسأل نفسي تلك الأسئلة في كل وقت وآن منذ ما حدث ، فأجبته بصوت مرتفع وبنبرة منكسرة : أعلم يا أبي ، أعلم.

غادر أبي غرفتي غاضبا وبقيت لوحدي ، وقد زاد همي هما ، بعد وقت قصير دخلت أمي إلى الغرفة مندفعة وقد تجمعت الدموع في عينيها وألقت بكلماتها تلك : " ما هذا الذي فعلته أيها الأحمق ، أربيتك وتعبت عليك لتفعل ذلك؟ أَقصرتُ معك في شيء !! هل تريد أن تضيع مني الآن " ردة فعلها تماما كردة فعل أبي.

حاولت أن أشرح لها لكن دموعها إنهمرت بسرعة على خديها ، مما جعل كل تبريراتي تتلاشى وأخذت أعتذر لها وأقول : أنا آسف يا أمي ، أؤكد لك كانت مجرد غلطة ، أرجوك توقفي عن البكاء أنا لن أكررها.

لكنها أجهشت في البكاء كطفل صغير فأجلستها على سريري وهدأتها بصعوبة.

خرجت من منزلي ليلتها وشعرت أني خسرت عائلتي ، وخسرت أصدقائي وخسرت راحة بالي ، أبي خرج غاضبا مني ، ولا أنفي أنه سيبقى كذلك لمدة طويلة ، وأمي كانت تنظر إلي نظرات خذلان وإنكسار وكأني فعلت شيئا لا يغتفر، وحتى أخي الصغير الذي لم يتخطى الثامنة من عمره تجنبني وكأني مجرم أو رجل عصابات بسبب ردة فعل والديَّ.

وكل ما فعلته أن حملت هاتفي وصرخت في مسجلته بغيظ " بينما أحاول المحافظة عليك خسرت الجميع ، آمل أنك سعيد الآن " وأرسلتها إلى أمجد ، تبا!.

سرت على الرصيف بتعب وإختناق إلى أن وصلت إلى منزل يونس وإتصلت به ، دقائق وقد خرج لملاقاتي وتساءل عندما وصل إلي : ماذا حدث؟

طأطأت رأسي أنظر إلى الأرض أمامي وأنا أجيبه : لقد أخبرت أبي وكذلك علمت أمي.

ضحكت بسخرية ضحكة تخللها الحزن وأنا أكمل : العائلة من تجعلك تكتم كل شيء بداخلك حتى الأمور الصغيرة حتى تتراكم وحينها فقط سيحصل ما لا يسر.

رفعت وجهي ليونس وقد حرك رأسه يمينا ويسارا بهدوء وقال : هذه فكرة خاطئة تماما لذلك لا تصدقها ، إنها ليست غلطة العائلة هنا ، كل ما في الأمر أن هناك أشياء تقال لأشخاص دونهم ، وبعض الأشياء لا يمكنك أن تقولها لعائلتك ، لا يمكنك أن تقولها سوى لأصدقائك ، تماما مثلما هناك أمور لا يمكنك أن تقولها لأصدقائك ، لذلك ليست غلطة العائلة إن لم يكن من الممكن أن تفهمك.

ما فعلناه مثلا إذا أخبرت صديقك به فسيتفهمك ، لكن عائلتك لا يمكنها ذلك إن العائلات تنظر إلى أبنائها من منظور مختلف ، إنهم يرون الأمر على أنه يجب أن نكون رائعين وجيدين وبخير دائما ، وما أعلمه أن عائلتك ليست سيئة يا صديقي ، ولكن في النهاية لا يمكنهم أن يتفهموك في كل شيء ، هذه قاعدة.

كنت لا أزال متضايقا وفي محاولة من يونس للتخفيف عني إتصل برامي وأخذنا إلى مقهانا المعتاد " مقهى الدب القطبي " وراح يفتح أحاديثا مختلفة وصَنع جوا من المزاح والمرح ، ولم ينسى أن يذكر عدم علم عائلته عما حدث حتى الآن ، أما رامي فحكى لنا ضاحكا تعجب والده لإهتمامه المفاجيء بعالم القضايا والمحاماة ، وظن أنه يريد أن يصبح محاميا ، ولم يعلم أن لإبنه مصالحا شخصية فقط.

من الجيد أن يكون للشخص أصدقاء حقيقيون يهتمون لأمره ، يمضي وقته معهم بدلا أن يمضيه رفقة الحزن والإكتئاب ويتحول في النهاية إلى مخلوق منعزل لا إجتماعي لا يفهم لغة البشر الطبيعيين.

على كل توالت الأيام إلى أن حل يوم الإثنين، إستيقظت بصعوبة متعبا كئيبا ، ومنطفئا وكأنه سيحكم علي بالإعدام اليوم.

ولدي تلك العادة السيئة للأسف ، وهي عندما يكون لدي حدث مهم في يوم ما فإني أستيقظ في وقت مبكر جدا قبل المنبه الذي أضبطه بساعات ؛ لذا بقيت في غرفتي ، أتصفح هاتفي بعشوائية ، قبل أن أرتب هندامي وأرتدي ملابسي المفضلة ، ألا وهي قميصي الأبيض وسروال الجينز الأسود.

المرة السابقة كنت قد ذهبت إلى المحكمة في سيارة الأجرة ، لكني هذه المرة بمجرد أن إستعددت وخرجت من المنزل ، وجدت أبي واقفا أمام سيارته البيضاء بإنتظاري ، وقد أصدر إماءة خفيفة برأسه مفادها أن نذهب ، ولكن بالرغم من ذلك تصرفاته معي كانت مختلفة ، كان يتكلم معي ، نعم ، ولكن ليس كما إعتدته كان كلامه باردا.

وطوال الطريق كان يسود السيارة جو موتر للأعصاب ، موتر لأعصابي أنا أنا معتاد على أبي كونه إنسانا مرحا ، من عادته أن يفتح معي مواضيعا مختلفة ، ويتحدث معي بإهتمام ، ويسألني عن آرائي ، ويناقشني ؛ كنا كذلك في أغلب المرات التي أستقل فيها السيارة معه ، أما عندما يغضب مني كما هو الآن فإن تصرفاته تختلف ، يتحدث معي ببرود، يتجاهلني، يتصرف وكأني لست موجودا معه ، ويبدو أني أغضبته جدا هذه المرة.

كانت تلك واحدة من المرات التي تمنيت فيها لو أن الوقت يمضي أسرع ، فقط لكي يحِل شعور الضيق عني.

توقفت السيارة أمام المحكمة فنزلت بهدوء وشكرت أبي على توصيلي ، لكني لم أتوقع أنه أتى ليحضر الجلسة معي وقد نزل من السيارة وقال لي " لن أتركك "

سرت إلى الداخل وسار هو بجانبي ، وبالرغم من كون ما جئت لأجله وما أنا مقبل عليه لهو أمر غير باعث على الإرتياح إطلاقا ، إلا أني كنت واثقا من

نفسي ، شعوري لم يكن في محله ، ولكن كان يكفيني أن أبي يسير بجانبي وقد جاء فقط ليدعمني لأشعر بذلك ، إن مجرد حضوره يهدىء من روعي.

لقد كان الأمر دائما كذلك مجرد حضوره لأجلي يهدىء من روعي ، فلا أنسى أبدا الحادثة عندما تشاجرت مع بعض الطلاب في المدرسة ، أو عندما شاركت في منافسة كرة القدم بين الولايات ، أو عندما قدت الدراجة على أحد المنحدرات وإنتهى بي الأمر بالحصول على جروح وندوب تزين جسدي ، لقد كان أبي دائما حاضرا لأجلي في مواقف كتلك ، مثلما هو حاضر الآن.

كم أشعر بالأسف والندم لجره لأمر كهذا معي.

ومجددا حضرت الجلسة ومجددا حضر يونس ورامي وبين كل تلك الوجوه كنت أبحث عن وجه أمجد لكني لم أره.

حضر القاضي حضر المتهم والمحامون حضر الكل إلا أمجد.

بدأت المحاكمة ، وبينما كانت تبدو في المرة السابقة بطيئة ، بدت هذه المرة سريعة جدا، إذا تابعت الجلسة على هذا الحال، فحياة ذلك الرجل محكوم عليها بالخراب، غرامة مالية وسجن لبضع سنوات هذا ما ستؤول إليه القضية حتما.

تمنيت أن تحصل معجزة ما ، فقط أن يحدث أي شيء ، تسارعت دقات قلبي وأنفاسي، وكنت أتابع كلام القاضي بدقة شديدة ، أنوي مقاطعته والإعتراف وإنهاء الأمر فقط ، لكني لم أجرؤ على ذلك ، لا أدري كيف سأفعلها.

الجو خانق جدا هنا ، شجعت نفسي وأخذت نفسا عميقا ، نظرت إلى أبي بجانبي ، نظرت إلى أصدقائي وإلى من في القاعة.

وأخيرا رأيت ذلك الشاب ذو الشعر البني المبعثر والعيون البنية المتعبة ، دخل مقاطعا القضية ، وقائلا بجرأة وثبات مشيرا بيده : " ذلك الرجل الذي يقف هناك ليس مذنبا "

" إنها غلطتي أنا " دوت جملته تلك في أنحاء القاعة محدثة صدى واضحا لغياب أصوات تزاحم صوته.

وإذًا ما حدث لاحقا بعد ذلك ، أنه مع إعتراف أمجد ، أخذت العدالة مجراها ، وماذا أخبرهم أمجد؟ أخبرهم أنها كانت ليلة ماطرة عندما مر فيها على المتحف وعلم بوصول شحنة جديدة ، أراد أن يراها كما إعتاد أن يفعل مرات عدة برفقة أبيه ، فدخل المكان ولكنه لم يتوقع أن الكهرباء منقطعة عن المتحف أو بالأحرى عن بعض قاعات المتحف ، وقد إتصل بوالده وعلم منه أنه سيلاقيه قريبا ، وغلبه فضوله لرؤية الشحنة الجديدة وخاصة الجوهرة التي يقال عنها جوهرة القمر، أبهرته الجوهرة ، فتصرف بسخافة وحملها لكنها سقطت منه بغير عمد ، وغلبه الخوف فهرب.

بعد إعترافه ذاك توجهت له تهمتين ، تهمتين فقط واثق أنه قد حسب لهما حسابا كما فعلنا جميعا ، الأولى تخريب الممتلكات الخاصة ، الثانية الهروب من موقع الجريمة.

تهمتين وجهتا إلى شاب لم يتخطى الثامن عشر من عمره ؛ عقوبة ذلك غرامة مالية وسجن لعدة سنوات ، وقد يتعدى الأمر ذلك.

لاحقا تم توكيل محامي له وكان ذلك المحامي والد رامي ، صحيح أن العقوبات بقيت قائمة لكن تم تخفيفها إلى غرامة مالية ، والذي ساعد أمجد هو كون والده مدير المتحف ، وقد دعمه والده جيدا ، وخاصة أن والده كان على علاقة جيدة مع مالك المتحف ، لا ننكر أن ما حدث أثر قليلا على علاقة والد أمجد مع مالك المتحف ، ولكن ماذا يساوي ذلك مقابل أن نفوز أربعتنا بحريتنا وأن لا نحمل وزر عقاب شخص بريء.

قام والد أمجد لاحقا بدفع الغرامة المالية وأغلقت القضية ؛ خرجت يوم الإثنين ذاك أنا ويونس ورامي ببراءة تامة.

ولا أنسى إطلاقا عندما إنتهت تلك الجلسة ، وخرجنا من المحكمة التي تمنيت ألا أدخلها مرة أخرى ، كان أبي قد ذهب إلى سيارته بينما إلتقيت بيونس ورامي ، صحيح أن التعب كان قد سيطر علينا ، لكننا دخلنا في نوبة سعادة ، وقد إبتسمنا جميعا ، وقد غمرني شعور كبيرة بالراحة بأن ذلك الهم الذي كنت أحمله قد إنزاح عني ، هنأنا بعضنا على نجاتنا ، وضحكنا معا حد البكاء.

وما أروعه من شعور ، تلك المشكلة التي لعبت على عقلي وأفكاري لأيام ما عاد لها وجود ، تلك المصيبة التي كنت أظنها ستحدث لم تحدث ، كل مخاوفي راحت أدراج الرياح.

زفرت بإرتياح تام وقد قال رامي ضاحكا ومدعيا الحكمة : يقولون إذا إبتسمت لك الحياة فلا تفرح كثيرا لأن الحياة لا تبتسم طويلا.

فأسرعت وأجبته بحزم : دعك مما قالوا وإسمعني ، إذا إبتسمت لك الحياة فإفرح قدر ما تستطيع ، إفرح وإستمتع بكل لحظة ، هذا طبعا لأن الحياة لا تبتسم طويلا.

" تفكير سليم " علق يونس على قولي ، ثم أتبع : لطالما إعتبرت ذلك القول قولا سخيفا ، ففي النهاية الحياة واضحة ، هي مزيج بين السعادة والحزن ، ستعيش السعادة حتى لو كانت قصيرة وستعيش الحزن أيضا مهما طال ، ولا يجب على أحدهما أن يأخذ من وقت الآخر.

" تفكير سليم أيها الحكيم " علق بها رامي على كلام يونس مبتسما إبتسامة واسعة كشف بها عن أسنانه البيضاء.

بعد إجتماع ثلاثتنا الذي دام دقائقا معدودات ، توجهت حيث ركن أبي سيارته سيارة أبي بيضاء اللون كبيرة الحجم ، على بابها الأمامي ملصق علم بلدنا

كنت قد ألصقته عليها بنفسي ؛ من السهل علي معرفتها ، لكني لم أرها بين كل تلك السيارات ، بحثت من حولي ولم أجدها.

لا أصدق أنه رحل من دوني .

أدخلت يدي في جيوبي ولم أجد أني أحمل معي أي مال ، بحثت أكثر ولم أجد أي مال ، لا بد أني نسيته في غرفتي ، أخرجت هاتفي من جيب سروالي وأخرجت سماعات البلوتوث من الجيب الآخر والتي من الجيد أني لم أنسها هي الأخرى ، وضعتها في أذني ، ثم بحثت عن شيء لأشغله ، وحينها فقط لاحظت رسالة صوتية بعثها أمجد كرد على الرسالة التي بعثتها أنا ، فتحتها ليندفع الصوت لأذني بصوت أمجد المنفعل " إسمع ، حسنا أنا أعلم أنني لست بالشخص الذي قد ترغب أن تكون على صلة به وأعلم أنني أتسبب لكم بالمشاكل عادة ، ولا أستبعد أنني قد أكون جعلتك تتمنى أنك لم تعرفني يوما ، أعلم أن اخطائي كثيرة ، صدقني أنا أعلم ذلك ، وأحاول بالفعل التوقف عن إيقاعكم في المشاكل ، ولكني لا أستطيع فعل ذلك بين ليلة وضحاها أيضا "

تفاجأت بنفسي وأنا أقهقه عاليا مما لفت إنتباه المارة إلي ، أبدو كالمجنون بفعلتي هذه ، تمالكت نفسي ، وسعلت بخفة مخفيا فمي بقبضتي اليمنى.

نظرت إلى الطريق ثم بدأت السير، أمامي طريق طويل، لا يخلو من المارة الذين يسيرون في نفس خط سيري ، ومن يسيرون في إتجاه معاكس كذلك ، أغلب هؤلاء الأشخاص إذا لم يكن كلهم ، أراهم للمرة الأولى في حياتي وليس بعيدا أن تكون المرة الأخيرة ، كم هو غريب الأمر عندما أفكر أن لكل منهم قصة وأحداثا في حياته وكل منهم لديه عائلة مثلا ومرتبط بأشخاص ما والغريب أن كلا منا يرى الآخرين وكأنهم شخصيات ثانوية في رواية ما.

كنت أمر على المحلات المختلفة كإختلاف فصول السنة وتمر علي السيارات الفاخرة والمتواضعة التي تكشف أحوال أصحابها.

من الغريب أن أمجد الذي ورط نفسه وكاد يورطنا معه ، ونفسه الذي حل هذه المعضلة هو نفسه من قال ذلك الكلام.

لا أدري ربما لم يكن يجدر بي أن أقول له ما قلت ، ولكني كنت منفعلا حينها.

ومع هذا سماع إعترافه ذاك ليس بالشيء السيء ، فكم مرة سيمكنني سماع إعتراف كذلك من أمجد ، إنه أمجد ، ذاك الشخص الواثق من نفسه على الدوام، الذي تحيط به هالة من الغرور، ولم أره يوما مترددا بشأن أي شيء ، أو إعتذر على أي شيء.

حتى في فصل الشتاء الماضي الذي حاز فيه على المرتب الأول في سباق التزلج على الثلج ، أمضى الأمسية والأيام التي بعدها في التفاخر بشأن الأمر وعندما أخبره رامي بأن يتواضع قليلا ويراعي كونه تحصل على المرتبة العاشرة ، كان قد لوح بيده في الهواء ورد على رامي قائلا : " التواضع ليس أن تنقص من قدرك إنما التواضع هو ألا تنقص من قدر الاخرين " وأضاف على كلامه " وأنا لا أنقص من قدر أحد فقط أتحدث عن نفسي " لقد إتخذ بقوله ذلك ذريعة ليتابع الثرثرة عن نفسه.

دائما ما يجد لنفسه عذرا ما.

أما في المرة التي سألناه فيها عن لما إنتهت صداقته مع من يُعتبر صديق طفولته ونفسه إبن عمه ، كان قد أجاب بلا مبالاة واضحة " أنا لا أحب مصادقة أولئك المشغولين إلى الأبد.. هل يمكن لشخص أن يكون مشغولا إلى الأبد ؟! حتى أنا لدي أعمال ولكن لا أقول انا مشغول.. لدي اعمال ولدي وقت فراغ ايضا " وقال أيضا " لا تهتموا ليس بالشخص المهم " حسبما اتذكر كانا صديقين مقربين ومتشابهين في التصرفات ، ولكن انتهاء تلك الصداقة لم يكن مهما لأمجد إطلاقا ، لم يكن هناك علاقات لأمجد إنتهت وهمه أمرها ، بدى لي ذلك كميزة يملكها ، ألاَّ يتأثر بحضور أحد أو غيابه ، ولكن رغم الصورة التي يبدو عليها إلا أنه ليس بالشخص السيء على

الإطلاق ، إنه فقط طفولي ، ومتهور ، ومحب للمغامرات بشكل مبالغ فيه قليلا ولا يضع حسابات لتوابع أفعاله للأسف.

بعد ما يتعدى الأربعين دقيقة من السير وجدت نفسي أمام منزلي الذي يطل على الطريق مباشرة ، دخلت وكان المكان هادئا لثوان قبل أن تندفع إلي أمي بخفة لتعانقني وهي تقول : لوهلة ظننتك لن تعود.

أحطتها بذراعي وإبتسمت براحة قائلا : آسف على إخافتك.

تراجعت للخلف وقالت : بالطبع يجب أن تكون آسفا ، لقد أخفتنا.

ثم إقتربت مني وجعلت صوتها أقرب للهمس وقالت : والدك ليس راضيا عنك حتما يجب أن تفعل شيئا بهذا الشأن.

زفرت بتعب وقلت : آه سيكون الأمر صعبا.

ثم إبتسمت لها وأضفت : ولكن يكفي أن ترضي عني يا أماه والباقي سيتيسر شيئا فشيئا.

ضحكت بهدوء ضحكة تبعث في نفسي الطمأنينة وأرجعت خصلة من شعرها البني القصير وراء أذنها ونطقت : أحبك وأنت مطيع والآن إذهب لوالدك فلا نريد خلافا عائليا سخيفا.

وأشارت بإصبعها للمطبخ ، ثم إنصرفت.

توجهت إلى المطبخ فوجدت أبي جالسا أمام الطاولة الدائرية في يمناه مفك براغي وفي يسراه مصباح يدوي معطل ، جلست مقابلا له وبدأت الحديث قائلا : شكرا على حضورك اليوم.

لم يرفع عينيه ولم ينظر إلي ونطق بهدوء : كان علي فعل ذلك ، لكي لا تقول أني لم أهتم لأمرك.

شبكت يدي على الطاولة محرجا وقلت معتذرا : أنا آسف يا أبي ، حقا أنا لم أقصد سوءً

تابع عمله بهدوء وأجاب : يجب أن تكون كذلك وأن تتذكر ذلك مستقبلا قبل أن تقدم على أي عمل متهور.

صَمَتُّ ، وتفحصت مطبخنا وكأني أراه للمرة الأولى ، الكراسي الخشبية ، وطاولة التحضير ذات الرخام الأسود ، والخزائن البيضاء التي لا أدري من أي مادة صنعت ، ثم نظرت إلى أبي ونطقت بصوت نادم : إلى متى ستظل غاضبا مني ، هل علي أن أقسم لك أنها كانت غلطة وأني لن أكررها ، إذا كان علي ذلك فسأفعل ، ولكن لا تغضب.

توقف عما يفعله ورفع عينيه إلي أخيرا ثم قال بصوته العميق : لا يمكن للإنسان أن يكون مثاليا مهما فعل ، لقد أخطأت بما فعلته ، وأعلم أنك نادم ، ولكن لا تطلب مني أن لا أغضب ، أنا غاضب لأني أهتم لأمرك.

نهضت لأقف وسألته بصوت منخفض : حسنا هل ستقبل إعتذاري قريبا على الأقل؟

همهم وأجاب " ربما " فخرجت بهدوء " ربما " أجل سيسامحني أنا أعرف جيدا أنه لا يمكنه أن يغضب مني إلى الأبد.

صعدت إلى غرفتي لأستريح وأشحن هاتفي ، فوجدت رضا أخي الصغير يجلس على سريري بكل أريحية يلعب بلعبة الفيديو خاصته ، خطوت للداخل وناديته: يا هذا!

إنتفض ونهض من السرير وتساءل بتذمر: لما عدت يا أخي؟

إرتفع حاجبي بتعجب مجيبا وسائلا : ليس بيتك لوحدك وماذا تفعل في غرفتي أيها المتطفل؟

فأجابني بصوته الطفولي المزعج : كانت أمي تقول أنك ربما لن تعود لذلك كنت سآخذ غرفتك.

ضغطت على أسناني أحاول تهدئة نفسي وعدم تبريحه ضربا بعد جوابه عديم النفع ذاك وأجبته بصوت مرتفع : هكذا إذا أيها المزعج !! هيا أخرج من غرفتي أنا لم أمت بعد حتى ترثني.

نزعت حذائي ورميت بإحدى الفردتين تجاهه ففر هاربا بسرعة.

أنا كنت على وشك دخول السجن وكل ما يهمه هو الغرفة.

بقيت لوحدي في غرفتي أخيرا بعد إنتهاء كل شيء ، مع شعور كبير بالراحة يخالجني ، لا مزيد من التوتر والقلق لا مزيد من الإفراط في التفكير ولا مزيد من البحث عن حلول خيالية.

أحيانا تبدو المشكلات وكأنها غرفة مغلقة بلا منافذ ولكن بالرغم من ذلك يبقى هناك دائما باب مفتوح ، كنت قبل وقت قصير جدا أظن أن أمري إنتهى ولم تكن لدي أدنى فكرة عما سأفعله.

ولكن كل ذلك قد تلاشى الآن ، وما عاد له وجود ، كل ما ظننته لن ينتهي إنتهى وأسوء ما ظننته سيحدث لم يحدث.

كانت مغامرة كادت أن تودي بنا للقاع ، لقد مررنا بأيام عصيبة حقا ، وما زلت أتذكر ما حدث حقا بوضوح ، كانت ليلة باردة خرجنا فيها للتنزه والإبتعاد عن جو الدراسة ، كنا نسير في طرقات مألوفة ، نتبادل الأحاديث ونضحك بعفوية ، تجولنا في شوارع المدينة المزدحمة تحت أضواء أعمدة الإنارة البيضاء ، وكان الهواء باردا منعشا وزخات المطر تتابعت بخفة ، بينما أحكمت إغلاق معطفي القرمزي اللون.

كنا قد وصلنا إلى المتحف فتباطأ سيرنا وتوقفنا أمامه ، إنه ذلك المبنى الكبير الذي إستقر فوق مدخله تمثال ذهبي لزهرة اللوتس ، وإنتابت أمجد فكرة مجنونة وافقه فيها رامي بسرعة.

" هيا فلنجر جولة في المكان "

" ألا تراعي القوانين ؟ " كان ذلك رد يونس على كلام أمجد ؛ فتأفف رامي وتذمر قائلا " حياتنا تحكمها الكثير من القوانين "

" جولة سريعة مغامرة ليلية بسيطة ولن يعلم أحد " هذا ما قاله أمجد.

وكانت تلك نيتنا ، جولة نكسر بها الملل ، وقررنا الدخول بالفعل ، كان مفتاح المكان بحوزة أمجد وعندما تساءلنا عن الأمر قال أنه قد أحضره من عند والده وسيعيده قبل أن يعلم بذلك ، دخلنا المكان بهدوء تام وكانت الكهرباء قد إنقطعت تلك الليلة ، كان ذلك سببا يدفعنا للتراجع ، لكن رامي أخرج هاتفه مضيئا الكشاف هو الآخر مثلما فعل أمجد ، أمجد شخص يحب التحديات والمغامرات ، وأي شيء يرفع الأدرينالين وقد يتسبب في توقف القلب ، تأفف يونس بملل وأعلن أنه لا يريد الدخول في الظلام ، لكن أمجد قال أن التجول في الظلام سيكون تجربة لن تتكرر وأنه يمكننا إختبار مدى شجاعتنا وأضاف قائلا " آمل أنكم لستم خائفين من الظلام " ، مما جعلنا ندعم أفكاره المجنونة ، ولا أنكر أننا تحمسنا للأمر قليلا فلا يتنسى للمرء دخول المتحف في جو كذلك كل يوم ، وخاصة أن الدراسة أصبحت شاغلنا مؤخرا ، كان كل ما في ذلك المتحف مثيرا للإعجاب ، وخاصة قسم المجوهرات ، كان واسعا بشكل كبير وإحتوى على عشرات الأحجار الكريمة من شتى الأنواع والألوان والأشكال وقد لمعت عند تسليطنا الضوء عليها ، وفي تلك القاعة إستقرت عدة صناديق

بأغطيتها الزجاجية الشفافة التي سمحت لنا برؤية ما بداخلها ، بدت وكأنها وصلت منذ وقت قصير وتفقدها أمجد قائلا : لا بد أنها الشحنة التي كان يتحدث عنها أبي ، نحن محظوظون لرؤية جوهرة القمر قبل بقية الزوار ، تفقد الصناديق وإقتربنا نحن كذلك لنتفقدها مستكشفين ، إلى أن صاح يونس : الجوهرة هنا يا رفاق.

تحرك أمجد من مكانه بسرعة ، ثم تجرأ وفتح الصندوق المغلق ، متعذرا بقوله السخيف ذاك : لن يعلم أحد لا تقلقوا.

وقد إستحقت تلك الجوهرة إسمها بجدارة ، فقد كانت كروية ملساء بيضاء اللون تحيط بها هالة مضيئة ، كانت نسخة مصغرة من القمر على مقاس اليد.

كنت لأود الإحتفاظ بها كزينة رائعة في غرفتي أو كمصباح جميل ينير العتمة في الليالي التي تنقطع فيها الكهرباء.

وقد أثنى رفاقي على جمال الجوهرة وعبروا عن إنبهارهم بها.

وبعد أن فتح أمجد الصندوق تمادى أكثر وحملها بيده مسلطا عليها الضوء ، وحاولنا نهيه على فعله كوننا نعرف أنه ليست مستبعدا أن يسقطها من يده ، وبين جملنا تلك دوت نغمة هاتفه ، ففزع وأسرع لينهي الإتصال فإذا بالجوهرة تنفلت من يده ، وتتجه للأرض في لمح البصر لتصبح هشيما.

كان الخوف واضحا على وجوه رفاقي ، وأمجد بالذات حاول تدارك الأمر وإنكار ما حصل ، ولم يكن على لساني سوى عبارات اللوم ، وعندما لم يجد أي منا أي حل لتصحيح الوضع ، رحلنا سريعا بدون فعل شيء ، لكنني عدت بالرغم من ذلك ؛ عدت لأرى مشهد إتهام أشخاص أبرياء.

بعدما خرجنا من المتحف فرارا حاولنا الإبتعاد بقدر الإمكان ، وبعد مدة كنا قد توقفنا أمام أحد المقاهي نلتقط أنفاسنا بعد هروبنا ركضا.

دخلنا إلى المقهى وطلبنا بعض المشروبات الساخنة على حساب أمجد ؛ ثم خرجنا بعد إستلامها نسير بإتجاه معاكس للمتحف ، أمطرنا أمجد بوابل من

اللوم والتهديد ولاقى كلامنا بجملته السخيفة التي ما كانت تزيد الوضع إلا سوءً " لن يعلم أحد لا تقلقوا كل ما علينا فعله هو نسيان الأمر " وفي محاولة أكبر لطمأنتنا قال: لا شيء يدل على أننا كنا هناك الليلة ، أما عن مفتاح أبي فسأعيده قبل أن يلاحظ وهو ليس مفتاحه الأساسي حتى ، إذا كان الأمر متعلقا بالبصمات فلست أول من حمل الجوهرة ، وكما رأيتم جميعا لقد أصبحت هشيما ، بل أشبه بغبار براق ، وكنت أضع هذه القفازات الشتوية على كل حال ، والشيء الأهم كاميرات المراقبة لم تكن تعمل لأن الكهرباء منقطعة كما تعلمون.

وصمت فتوقف يونس وسأله مستنكرا: أتتحدث عن كاميرات المراقبة الآن؟ لا أدري حقا كيف نسيت أمرها ، أنت كنت تعلم أن الكهرباء كانت منقطعة عن المتحف أليس كذلك؟ أنت لم تقرر أن تغامر هكذا فجأة بل كنت تعلم أن الكهرباء منقطعة والكاميرات لا تعمل، وأخذت المفتاح مخططا لإعادته في وقت معلوم.

تدخل رامي في الحديث قائلا كمن إستوعب الأمر: معك حق ، وأنا الذي كنت أظن أن أمر إنقطاع الكهرباء صدفة.

قلب أمجد عينيه بضجر مبررا : ليس بالشيء الكبير كما يبدو لكم ، نعم الكهرباء منقطعة بسبب بعض الأعطال ، لأن المتحف يستهلك الكثير من الكهرباء ويسبب الأمر ضررا أحيانا على مولدات الكهرباء خاصته.

ولا يحدث هذا للمرة الأولى كما قال أبي ، وليس الأمر كما تصفونه أني خططت للأمر ، كنت أعلم بشأن الشحنة الجديدة التي وصلت اليوم ، وكان من المفترض أن أراها مع أبي ، لكن تلك الفرصة تلاشت ، عندما تزامن موعد دراستي مع وقت وصول الشحنة ، ولم يكن بإمكاني التركيز على الدراسة أو الذهاب للمتحف ، ومرض أبي بالحمى بعدها ، فتبخرت كل الفرص وحصلت أعطال الكهرباء بعدها كذلك.

وأخذت المفتاح من عند أبي بدون تفكير فعلي وبدون أن يكون في نيتي فعل شيء بالضبط.

تساءلت أنا : ولماذا لم يكن هناك حراس للمتحف اليوم كذلك؟ ما سبب هذا؟ هل أرسلتهم لمكان ما مثلا؟!

قطب أمجد حاجبيه وأجاب : لا أدري بذاك الشأن ، الأبواب كانت مغلقة ، لا بد أن الحراس كانوا في الداخل إذا في أحد الأقسام الأخرى إنهم يساعدون عمال المتحف أحيانا في نقل صناديق المجوهرات أو اللوحات أو التحف وما شابهها ، إنها مجرد صدفة أننا لم نلتق بهم.

تساؤل يتلوه تساؤل كان الأمر كالإستجواب وإطمأن رامي قائلا: ليست أكبر مصائبي لم أخرب شيئا وإذا كان هناك لوم فليقع على أمجد، ليس مهما.

سرنا للأمام ووضعت يدي في جيبي بنطالي ولحظتها فقط لاحظت إختفاء مفتاحي ، مفتاح المنزل الذي أحمله معي والذي متأكد كل التأكد أنه كان في جيبي قد إختفى.

توقفت حينها أفتش عنه جيدا في كل جيوبي وجيوش القلق قد إجتاحت تفكيري وبسرعة أخبرت أصدقائي عن ذلك ، مفتاحي عليه علامة تحمل إسمي لكي لا يختلط مع بقية المفاتيح في منزلنا ، وإذا وجد في المتحف فحتما سيتأكدون أن أحدهم دخل وكسر الجوهرة وسأكون أنا المتهم الأول ، وبدون وعي عدت ركضا بسرعة إلى المتحف ورجائي أن يكون المفتاح ضاع في أي مكان آخر إلا المتحف.

ركضت بأقصى سرعتي وعندما وصلت أخيرا شغلت كشاف هاتفي وقربته من الأرضية ، وفجأة لمع مفتاحي وكأنه يناديني ، كان على بعد خطوات معدودة من باب المتحف ، وضعت مفتاحي في جيبي ونظرت إلى باب المتحف الذي تفاجأت بكونه مفتوحا ودفعتني رغبة حمقاء للدخول ؛ كان

الضجيج يعلو في الداخل والكثير من الأشخاص قد تجمعوا في مكان واحد ، سرت بضع خطوات لأقترب من المشهد لأرى الجوهرة هشيما كما تركناها يقف أمامها رجل يرتدي ثياب العمال الزرقاء ويرفع صوته مدافعا عن نفسه بينما يقف مقابله مدير المتحف الذي يلبس بذلة سوداء فوقها معطف ثقيل ويحيط عنقه بوشاح شتوي ، نطق بنبرة آمرة " من الأفضل أن تعترف بسرعة وتعتذر وتتحمل عواقب خطئك هذا ، الجوهرة لن تكسر نفسها بنفسها "

" لا يوجد ما أعتذر بشأنه " رددها العامل منفعلا وقد إحمر وجهه وكور قبضته ، توترت من الموقف ولم أفهم ما علي فعله نظرت خلفي لألاحظ أن كلا من يونس ورامي وأمجد يقفون خلفي.

تصاعدت حدة الموقف وتعالت أصوات جماعة من العمال يقولون أنه السبب وأنهم جاءوا ليجدوا الجوهرة مكسورة وهو واقف أمامها ، والمشرف على العمال نطق مكلما المدير : لا شخص آخر سواه قد فعلها.

وفي ثوان إنقض العامل على المشرف ممسكا به من قميصه صارخا في وجهه : لم أفعل ألا تفهم..

دفعه المشرف بحدة صارخا هو الآخر : ستدفع ثمن هذا ، لن تنجو بأعذارك الكاذبة أيها المجرم..

وكرد فعل من العامل إرتفعت قبضته سالكة طريقها إلى وجه المشرف ليلكمه بقوة على وجهه ، وتحول الأمر إلى شجار بالقبضات تدخل المدير ونائبه والعمال لفكه.

هكذا كان الأمر عقدة يمكن حلها لو أن واحدا من أربعتنا تكلم لكننا لم نفعل ، وبدلا من ذلك إنسحبنا من من مشهد الإتهام المتعدد ذاك بهدوء تام.

وإستمر الأمر على مدى أيام قبل أن يحل أخيرا ، بعد إنتهاء الأمر ما عدنا نرى أمجد إلا داخل أسوار المدرسة ، وفي اليوم الأول الذي إلتقيناه فيه بعد أيام من رؤيتنا له آخر مرة في المحكمة ، كان قد حصل على كدمة زرقاء وعدة جروح تزين وجهه بعد أن نال ضربا مبرحا من والده لجعله يخسر الملايين لتعويض ثمن الجوهرة ، وأصبح ممنوعا من مغادرة المنزل لغير المدرسة لمدة غير معلومة.

وبدلا من أن يستاء من الأمر كان يقول " أموال الدنيا كلها لا تساوي شيئا مقابل حريتنا يا رفاق ، وسأعوض أموال أبي في المستقبل لذا لا تقلقوا " وصحيح أنه إكتئب في البداية إلا أننا سرعان ما إستعدنا أمجد المغامر المشاغب.

ورغم أن الوقت يمضي بسرعة فقد مرت الأيام تليها الأسابيع والشهور إلا أني لم أسمع من أمجد أنه قد دفع لوالده أي شيء حتى الآن.

إنتهت الدراسة وحصلنا على العطلة الصيفية مع توفيق غريب في الدراسة ولا أدري كيف إجتزنا الإختبارات حتى.

أما عن أبي فبعد مدة طويلة جعلني فيها خادما لديه وعاملا خاصا لتنظيف سيارته، قرر أن يسامحني، صحيح أنه لم يقلها حرفيا ولكنه عاد ليتعامل معي بطبيعية كسابق عهده.

وأخيرا تأكدت أنه مهما تعقدت الأمور سيأخذ الحق مجراه وستتضح الحقيقة وإن تاهت بين كذبات البشر وأعذارهم ومصالحهم الشخصية.

وأن بعض المصائر التي تبدو محتمة ما هي إلا سراب يعظمه الخوف والقلق وأن على الإنسان ألا يملأ يومه بالتفكير لغده، وأن يقضي يومه على أكمل وجه لأنه لن يتسنى له عيش اليوم نفسه مرتين ، قد يحظى بيوم آخر ، لكنه لن يكون نفسه أبدا.

{ تمت بحمد الله }

إكتملت بتاريخ 1 ديسمبر 2023